

الأساس الواقعي للجماليات اللون في شعر الأغرربة الجاهليين

خالد زغريرت

جامعة حمص، سورية

الملخص:

شكل اللون هاجساً ذاتياً عميقاً عند الأغرربة، فوظفوه في أشعارهم، كاشفين دلالاته المعرفية والجمالية. أعاد الأغرربة ناءها ومتطلبات موقفهم الشعوري إزاء المجتمع الذي صنف قيم أبنائه حسب ألوانهم، نفلعهم من إنائه بسبب لونهم الخارج على قوانينه. لقد تراءى لنا في حالات كثيرة أن الشعراء الأغرربة يتعرفون إلى الأشياء بألوانها، فهي التي تعطيها قيمتها، ومعيارها الاجتماعي، فكان اللون الأبيض عندهم - على سبيل المثال - يجسد مظاهر قيم الجميل، والجليل، والبطولي، والسامي، لأنهم ربطوا اللون بجذر أسطوري، تستند إليه القيم العليا في مجتمعاتهم، وفيما يلي سندرس طرق تناول الشعراء الأغرربة اللون في أشعارهم وفق المنهج الجمالي، وكون هذا الجزء من البحث يهدف إلى الكشف عن الأساس الواقعي للقيم الجمالية التي درسناها في شعر الأغرربة فإنه سيعتمد على الاستقراء.

الكلمات الدالة:

اللون، الأغرربة، الجمال الشعري، الأسطورة، الأدب العربي.

تأسست القيم الجمالية للون في شعر الأغرربة⁽¹⁾ الجاهليين على أبعاد واقعية، تجلت في مظهره الحسي، كونه هيئة⁽²⁾ مادة بصرية، محسوسة، استحضره الأغرربة في أشعارهم بطريقة مباشرة من عالم الطبيعة، وجسدوا به الجمال الحسي، فانفعلوا به وتفاعلوا معه في فهم الطبيعة التي توحدوا معها واستثمروا عناصرها في تشخيص أحاسيسهم ورؤاهم، فغذوا واقعية القيم الجمالية المختلفة للون بخصوصيات إبداعية، تولدت من انعكاس تجاربهم الذاتية وتمايز مكوناتهم الشخصية التي تأصل فيها الخيال الشعري والتفرد الشعوري.

شكل اللون هاجساً ذاتياً عميقاً عند الأغرربة، فوظفوه في أشعارهم،

كاشفين دلالاته المعرفية والجمالية، فالألوان - بالإضافة إلى كونها "مظهرا من مظاهر الواقعية في الصورة الشعرية - كانت حاملة إرث ثقافي، حيث تتوضع في الألوان جملة من البنى الأسطورية والحضارية المؤسسة لثقافات الشعوب، فكانت ذات دلالات جمالية"⁽³⁾. أعاد الأعراب ناءها ومتطلبات موقفهم الشعوري إزاء المجتمع الذي صنف قيم أبنائه حسب ألوانهم، نفلعهم من إنائه بسبب لونهم الخارج على قوانينه.

لقد شكل الأثر الذاتي للون عندهم دوافع متناقضة أسهمت في تركيب شخصياتهم وفق نوعية القلق الذي تحمله، بسبب اللون، فأعلوه في أشعارهم كونه صفة لحقيقة ما، وتعبيرا مباشرا عن حالة بعينها، حتى تراءى لنا في حالات كثيرة أن الشعراء الأعراب يتعرفون إلى الأشياء بألوانها، فهي التي تعطيها قيمتها، ومعيارها الاجتماعي، فكان اللون الأبيض عندهم - على سبيل المثال - يجسد مظاهر قيم الجميل، والجليل، والبطولي، والسامي، لأنهم ربطوا اللون بجذر أسطوري، تستند إليه القيم العليا في مجتمعهم، وفيما يلي سندرس طرق تناول الشعراء الأعراب اللون في أشعارهم وفق المنهج الجمالي، وكون هذا الجزء من البحث يهدف إلى الكشف عن الأساس الواقعي للقيم الجمالية التي درسناها في شعر الأعراب فإنه سيعتمد على الاستقراء:

1 - اللون الأبيض:

يمثل اللون الأبيض الضوء الذي بدونه ما كان يمكن رؤية لون⁽⁴⁾، فهو أول الألوان الموسومة بالفئة الباردة التي تثير الشعور بالهدوء والطمأنينة⁽⁵⁾. يحتل المرتبة الثانية بعد الأسود حسب تمييز الألوان عند الشعوب المختلفة⁽⁶⁾. عني العرب القدماء بتمييزه بألفاظ خاصة، تحدد درجاته وصفاته، وتشعب دلالاته، فقد رتب درجاته الثعالي على النحو التالي: أبيض، ثم يقق، ثم لهق، ثم واضح، ثم ناصع، ثم هجان وخالص. أما الألفاظ التي تدل على البياض فهي كثيرة في العربية، فقالوا: يلق ولياح ووابص ومشرق وبراق ودلامص وهجان وحر، وقالوا للأبيض الخالص: الأزهر والأغر والأبلج والأقر والنعب والصرح، وللأبيض

يخالطه شيء من الشقرة قالوا: أقهب وأعيس، وللأبيض يعلوه سواد: أملح وأشهب وللأبيض يضرب للخضرة أبغث، وللأبيض القبيح: أمقه وأمق ومغرب وأبرص وأمره وقهد. وقالوا فيما وصفوه بالبياض: رجل أزهر، وامرأة رعبوبة، وبرههة، خرعوبة وزهراء وشعر أشمط وأشيب وأغم "الغثنة: أن يغلب بياض الشعر سواده" وفسر أشهب وأغر وأقرح "القرحة في الفرس دون الغرة" وبعير أعيس، وثور لهق، وبقرة لياح، وكبش أملح، وظي آدم، وثوب أبيض، وجبل أعل وفضة يقق، وخبز حواري، وسراب أمره وماء صاف وثوب خالص والسحل: الثوب الأبيض والصبير: السحاب الأبيض واليرمع: الحجر الأبيض، والوثيز: الورد الأبيض، والقضيم: الجلد الأبيض⁽⁷⁾.

ونجد في شعر ما قبل الإسلام ألفاظا نلمح فيها ظلال هذا اللون مثل: القمر، البدر، الشهاب، الربرب، الصبح، العاج، الدمقس، الفضة، الأخوان، الريم، النقا، الإغريض، الجمان، المرو أي: الحصى الأبيض⁽⁸⁾. يبدو لمتتبع استخدام اللون في شعر الجاهليين أن الغنى الذي مثله قاموسه في اللغة العربية لم يحل دون تداخله عندهم مع اللون الأصفر، ولا سيما في جانبي الإضاءة والإشراق، وفي مصدريهما الشمس والقمر، إذ ارتبط اللون الأبيض عندهم بأسطورتيا الحيتين في ذاكرتهم الثقافية، فاستمد الأغربة هذه الدلالة الأسطورية للون الأبيض ليجسدوا مثالهم الأعلى للرجولة، سائرين على نهج الشعراء الأحرار في تصوير قيم البطولة والجلال، أما حين يرتدون إلى ذواتهم في ظل الواقع، فإنهم كانوا يجعلونه حلما يستريحون تحت أطيافه، إذ كان اللون الأبيض غايتهم الضائعة التي أفقدهم غيابها حصانة وجودهم، على الرغم من ذلك نجدهم يقتفون أثر الجاهليين في تشبيه المرأة الجميلة (بالشمس، والقمر، والبيضة، والريم، والدرة)، يقول سحيم⁽⁹⁾ مشبها المرأة ببيضة الظلم⁽¹⁰⁾:

فما بيضة بات الظلم يحفها ويرفع عنها جؤجؤا متجافيا

قرن الأغربة صورة الرجل السامي، الجليل، البطل باللون الأبيض، نتيجة

خضوعهم للقيم الاجتماعية الجاهلية التي نشأ فيها هذا الاقتران عبر الربط الأسطوري للرجل الجليل، السيد بالقمر الذي عبد عند قدمائهم والإله (ود) بوصفه أبا للإنسان والآلهة حسب معتقداتهم⁽¹¹⁾. انتقل هذا الأثر الأسطوري إلى صورة الرجل المثالي الجاهلية، فعدوا بياض وجه الرجل قيمة سيادية بذاتها، وهو تقليد أصيل في الجاهلية سار على نهجه الشعراء الأغرابة، فيها هو عنتره⁽¹²⁾. يحدد مظاهر جلال الفرسان بياض وجوههم، مشبها واحدهم بالظبي الناصع البياض⁽¹³⁾:

كم من فتى فيهم أخي ثقةٍ حر أغر كغرة الرثم

صور الأغرابة باللون الأبيض صميم حياتهم الذاتية والموضوعية، فكشفوا أحاسيسهم بتحولاتها، كما في حديثهم عن الشيب وأثره في بيان المتغيرات الجسدية والنفسية للإنسان، فهو رادع لانفعالات الشباب ومدعاة للتأمل كما يرى خفاف بن ندبة⁽¹⁴⁾ في قوله⁽¹⁵⁾:

فإما تريني أقصر اليوم باطلي ولاح بياض الشيب في كل مفرق

فإذا كان بياض الرأس مجالا للتأمل في فلسفة الزمن عند خفاف فهو في جسم ناقته سبيله لتأمل جلال الطبيعة في إطارها الحي⁽¹⁶⁾:

صعل أتاها بياض من شواكله جون السراة أجش الصوت صلصال

أكثر الأغرابة من ذكر اللون الأبيض في وصف أسلحتهم التي حملوها صفات تدل على ما يجسدونه من قيم، فتغنوا بسيوفهم معينين بياضها مباشرة أو مشيرين إليه بالملح، جمع الشنفرى⁽¹⁷⁾ ذلك في قوله⁽¹⁸⁾:

إذا فزعوا طارت بأبيض صارم ورامت بما في جفرها ثم سلت

حسام كلون الملح صافٍ حديده جراز كأقطاع الغدير المنعت

كان التغني بياض السيوف والأخلاق - عند الشعراء الأغرابة - سبيلهم المعنوي في التغلب على مأساة لونهم، فألحوا بألم على ذكر بياض أفعالهم وأخلاقهم

لعلها تحد من غياب وضاعة لونهم، جسد سخيم هذه الرغبة في دعوته بتقديم بياض الفعل على بياض الشكل مستجيبا لمعاناته الذاتية وحلمه في نسف التقليد الاجتماعي السائد في عصره⁽¹⁹⁾:

إن كنت عبدا فنفسى حرة كرما
أو أسود اللون إني أبيض الخلق

إذا كان اللون الأبيض قد مثل عند الشعراء الأغربة واقع قيمة الإنسان الذي يتصف به، فإن هذا التمثيل يكشف حالات امتثالهم القاهر للمعايير الاجتماعية التي تمردوا عليها، فأبرزوا من خلاله صورهم النفسية وما يعتمل في أتونها من رغبات ذاتية وأحلام عزيزة للتحرر من قيد ألوانهم. لقد جسد الأغربة باستخدام هذا اللون وعيهم الجمالي، دون أن يفارقوا الأس الواقعي له حتى حين غالوا في تجييده، أو حلقوا في فضاءات الخيال.

2 - اللون الأسود:

الأسود أشد الألوان عتمة وأغمقها، وهو نقيض الأبيض في كل خصائصه، يمثل "الظلام التام وانعدام الرؤية ورمزوا به للحن والشؤم والعدم، كما دللوا به على الموت والفرق والخوف، والفناء، وقد وضعه علماء الألوان في المرتبة الأولى في قائمة الألوان عند مختلف الشعوب"⁽²⁰⁾، أما في العربية فجاء في المرتبة الثانية بعد الأبيض عند النمرى⁽²¹⁾. دللت عليه اللغة العربية بألفاظ تدل على كل ما هو ضد الجمال والحياة، أو ما هو مناف للاطمئنان والسلام. كما خصته بمفردات تصفه وتحدد درجاته "فقالوا: أسود حالك وأحم وفاحم وقاتم وغريب وخداري ودجوجي وديجور ومصلنم وغرابي وأدجن وأدخن وأدعج وأدلم وأدغم وأدهم وأسحم وأبخس وبهم وأسحمان وحانك ومسحنك ودغمان وحلوب وسحكوك، وأحتم، وغدافي وحمحم"⁽²²⁾.

حمل اللون الأسود عند الأغربة جملة دلالات مناقضة لما مثله اللون الأبيض، تركز جلها حول دائرة الخراب، والموت، والظلام، والفناء. وشعور الأغربة بالفجيعة التي يمثلها اللون الأسود صادر عن ذاكرتهم الأسطورية،

"فسواد الليل، يعيد لا شعوريا إلى ما قبل الخلق إلى عالم العماء حيث لا حياة ولا نور ولا بشر"⁽²³⁾. وفق هذا الشعور استخدم الأغرابة اللون الأسود، للتعبير عن حالات الفراق والحزن والرحيل، والموت فنوا به قيم القبيح، والوضع والداني، والمأساوي. كما بينا في الفصول السابقة، ووظفه للتعبير عن واقعهم الغارق بصور حالكة، تجسد قيمتي الوضع والقبيح اللتين عبر عنهما السليك بن السلكة⁽²⁴⁾ في وصف حالاته ومعاناتهن من سوادهن⁽²⁵⁾، وذكر العبيد في موضع آخر للدلالة على هوان الحي الذي يسهل غزوه⁽²⁶⁾:

يا صاحبي ألا لا حي بالوادي إلا عبيد وآم بين أذواد

نقل الأغرابة اللون الأسود عن صور الواقع المحسوس بطريقة مباشرة، ليضمنوه معاناتهم الذاتية ومواقفهم الراضية سنن المجتمع الجاهلي التي سلبتهم الحرية، فكشف عنتره عن معاناته بسواد بشرته التي حتمت إقصاءه عن المجتمع الحر، على الرغم مما يملكه من مقومات السادة ومظاهرها التي تجلت في مهاراته المتفردة في الفروسية⁽²⁷⁾:

لئن أك أسودا، فالمسك لوني وما لسواد جلدي من دواء

أكثر الأغرابة من استحضار الغراب لوصف فاجعة الفراق ورحيل الأحبة، متطيرين منه، رابطين صورته بجذرها الأسطوري الذي يرمز لما يذهب ولا يعود⁽²⁸⁾، حتى صار عندهم رمزا للتشاؤم والغربة والضياع والموت، ندبوا به الأحبة وتوجعوا على رحيلهم⁽²⁹⁾:

ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى بينهم الغراب الأبقع

برز اللون الأسود في شعر الأغرابة عبر صورة الأفعى التي تشبها بها للتدليل على فتكهم بالأعداء وإرعابهم الناس، فقد وصف الشنفرى نفسه بالأرقم⁽³⁰⁾ وهو من أحبث الحيات، كما شبه تأبط شرا⁽³¹⁾ سلاحه بنيوب الأساويد⁽³²⁾:

فإن أك لم أخضبك فيها فإنها نيوب أساويد وشول عقارب

عبر الأغرابة الصعاليك باللون الأسود عن انسجامهم مع بيئتهم الخاصة فتمثلوا، ودلوا به على توحدهم مع الطبيعة في تجاربهم الحياتية، متمثلين بحيواناتها لإظهار قواهم الخاصة وشراستهم فشبه الشنفرى نفسه بالذئب الأطحل وبالسمع المذلل قسوة البيئة⁽³³⁾:

أنا السمع الأزل فلا أبالي ولو صعبت شناخيب العقاب

صار اللون الأسود أداة الشاعر الغراب لوصفه تفاصيل الطبيعة التي عاش وحشها، فصور عناصرها التي يدلل من خلالها على مقدراته الفردية ومغامراته، كما فعل حاجز بن عوف³⁴ في تصوير الجبال السود، واصطبغ أقدامه بالسواد لكثرة وطئه التراب حافيا⁽³⁵⁾:

وأعرضت الجبال السود خلفي وخينف عن شمالي والبيم
تراها من وئام الأرض سودا كأن أصابع القدمين شيم

على الرغم من ظلمة حياة الأغرابة وتماسها المستمر مع التوحش والدماء، كان اللون الأسود - عندما يحضر للتعبير عن الموت المادي - يردد صدى هاجس القلق والرعب في نفوسهم من النهاية الأبدية، فقد تحدث عبدة بن الطبيب عن ظلمة القبر كاشفا قلقه من هذه النهاية⁽³⁶⁾:

ولقد علمت بأن قصري حفرة غرباء يحملني إليها شرجع
يؤكد الشنفرى دلالة اللون الأسود على الفناء في تناوله حتمية مآل كل إنسان إلى ظلمة القبر⁽³⁷⁾:

وكل فتى عاش في غبطةٍ يصير إلى الجدث الأسفع

دخل اللون الأسود شعر الأغرابة من صلب حياتهم وصميم بيئتهم، فتحدثوا عن صوره في كل ما تعرفوا إليه في محيطهم، كاشفين عن صلاتهم الحياتية به، محملينه دلالات، تعبر عن حالاتهم النفسية، فولدوا عبر صوره القيم الجمالية السلبية التي درسناها وكانت: القبيح والوضيع والهزلي والجبان والمأساوي.

3 - اللون الأحمر:

هو أول الألوان التي عرفها الإنسان في الطبيعة، ينتمي إلى مجموعة الألوان الساخنة المستمدة "من وهج الشمس، واشتعال النار، والحرارة، وهو من أطول الموجات الضوئية المرئية"⁽³⁸⁾.

أكثر الشعراء القدماء من استخدامهم هذا اللون نتيجة وعيهم الجمالي والمعرفي لدوره في أصل الوجود والواقع، لذلك نجد تقدم ذكره في الأدب العربي وتنوع ألفاظه التي كثرت "لتعبر عن ماهيته وقيمته، ومدى نقائه، ودرجة تشعبه وهي: الحدود الوضعية العلمية للون"⁽³⁹⁾ من ذلك قولهم: أحمر، أحمر قاني، وأرجوان، ونكع، وناكع، وورد ومدمي، وكرك وعاتك، وباحر، وبحراني، وذريحي، وثقيب، وحانط، وغضب، وعبروا عن الحمرة الصافية الخالصة المشرقة بقولهم: أحمر ناصع، ويافع، وزاهر، ويانع، وغير ذلك، وقالوا لكل أحمر: إضرب جريال، وعندم، وقالوا للأحمر القاتم القريب للسواد: أسفع، وأحسب وأدبس، وكيت، وأصبح، وأجأى، والأحمر المختلط بصفرة قيل له: أخطب، وأصهب، وأكهب، كما قالوا للأحمر المائل للبياض: أشقر، وأعقر.

ونعت العرب أيضا اللون الأحمر بلون الذهب بالأهب كما قالوا للرجل الأحمر: أشقر، أما إذا كان الجبل أحمر فهو: هضبة وإذا كانت الأرض حمراء الحصى فهي خشمة، وقالوا: أقشر للأحمر الذي ينقشر وجهه⁽⁴⁰⁾.

تظهر السمات الواقعية للون الأحمر في شعر الأغرابة عبر ارتباطه بالدم، وتكوين الحياة. فقد نقلوا هذا الارتباط إلى أشعارهم، ليعبروا عن علاقته بتجاربه الذاتية وأحاسيسهم، ولاسيما أن هذا اللون "يشير روح الهجوم، والغزو، والثأر، ويخلق نوعا من التوتر العضلي، كما أنه مثير للبهجة وله خواصه العدوانية"⁽⁴¹⁾ هذه الخواص التي تنسجم مع حياة الأغرابة الذين ربطوا بين الدم واللون الأحمر في أشعارهم ليحملوه ما تمتعوا به من قوة وعدوانية، وشراسة، تمثل أهم مقومات شخصية الشاعر الغراب الذي ألح على تصوير بطولته من خلال تأثير دمويتها⁽⁴²⁾:

سبقت يداي له بعاجل طعنةٍ ورشاش نافذةٍ كلون العندم
وقد نسب الأعرية الأشياء إلى ألوانها، فسموا السيف الأبيض، والقوس
الحمراء، والدرع الأصفر على نحو ما تكرر في قول الشنفرى⁽⁴³⁾:

وحمراء من نبع أبي ظهيرة ترن كإرنان الشجي وتهتف
وقوله⁽⁴⁴⁾:

أركبها في كل أحمر غاثر وأقذف منهن الذي هو مقرف
وقوله⁽⁴⁵⁾:

وباضعةٍ حمر القسي بعثتها ومن يغزيغم مرة ويشمت
على الرغم من كثرة استخدام الشعراء الأعرية اللون الأحمر، بقي مرتبطا
بصورته المادية الواقعية "الدم"، كونه يحقق للإنسان الجاهلي مظهرا من مظاهر
العزة، ودلالة من دلالات القوة، فهو "أعز الألوان في لعبة الحب والحرب"⁽⁴⁶⁾؛
ويبدو ذلك جليا في حالة عنتره الذي يعن في تقديم نفسه لعبلة مسربلا بدم
الأعداء، كما يقرن حصانه بصورة مشابهة، ليلفت قلب عبلة نحوه، حاثا إياها على
تقدير بطولته الحمراء، لعل صخب لون الدم يخفي تحت ركامه سواد بشرته، يقول
عنتره عن إقام حصانه في القتال ليخضب بالدم، فيرى كأنه لابس قطيفة
حمراء⁽⁴⁷⁾:

وأكرهه على الأبطال حتى يرى كالأرجواني المجوب

بات الدم عند عنتره الهدية المثلث التي يستهوي بها عبلة، فهو دائما يخصصها
في السؤال عن استجمال لباسه من دم الأعداء، طامعا بحظوة عندها عبر الدم
الذي صار وردته المحببة التي يقدمها قربان عشقه لعبلة المسرفة في الغنج
والتمتع⁽⁴⁸⁾:

سلي يا عبل قومك عن فعالي ومن حضر الواقعة والطرادا

وعدت مخضبا بدم الأعادي وكرب الركض قد خضب الجوادا
 لطالما وحد عنتره في شعره عالم الحب وعالم الحرب، بانيا مقوماته الشخصية
 في هذا المشترك من هذين العالمين، فكان يذكر الدم وعدة الحرب في مقام الغزل
 ليصف أعضاء الحبيبة بها⁽⁴⁹⁾:

فولت حياء ثم أرخت لثامها وقد نثرت من خدها رطب الورد
 وسلت حساما من سواجي جفونها كسيف أبيها القاطع المرهف الحد
 وهكذا قد شكل اللون الأحمر عنصرا أساسيا في ألوان لوحة الشعر الجاهلي،
 فكان أشدها كثافة في التعبير عن إرادة الشاعر الغراب، وأحلامه، ونفسيته
 وحقيقة ارتباطه الأصيل بالواقع والحياة.

4 - اللون الأصفر:

اللون الأصفر هو أحد الألوان الساخنة، فهو "يمثل قمة التوهج والإشراق
 ويعد أكثر الألوان إضاءة ونورانية، لأنه لون الشمس ومصدر الضوء، واهبة
 الحرارة والحياة والنشاط والغبطة والسرور"⁽⁵⁰⁾، وقد أشار القرآن الكريم إلى أثره
 النفسي فهو يسر الناظرين: (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها
 بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين)⁽⁵¹⁾.

عبر العرب عن اللون الأصفر بألفاظ متعددة للدلالة على صفات هذا اللون
 ودرجاته. فقالوا: أصفر، وأكدوه بقولهم: أصفر فاقع وللتعبير عن اختلاطه بغيره
 من الألوان، قالوا: أصهب وأكهب وأهب للصفرة تخالطها الحمرة، وقالوا: أسفع
 وأصحم للصفرة يخالطها سواد⁽⁵²⁾. حفل قاموس اللغة العربية بألفاظ كثيرة توحى
 بهذا اللون مثل الذهب الذي تسميه العرب: الصفراء، والورس، والعسجد،
 والحصى، والزعفران، والرمل والذهب.

يمكن أن نتبين من قراءة شعر الأغرابة سمات الوعي الجمالي والثقافي في
 تعاملهم مع هذا اللون، وتدرجه، وخواصه الفنية - إلا أننا نجدهم قد داخلوا بينه
 وبين الأبيض بإسراف، يظهر ذلك عبر تركيزهم على إبراز الإشراق والإضاءة،

والسطوع، فكان يحمل في أغلب الأحيان معنى اللون الأبيض، فقد وصفوا المرأة البيضاء بالشمس، رابطين بين الصورة الواقعية لها من خلال اللون، والإشراق، والإضاءة والدائرية، وصورتها المثالية المرتبطة بالأسطورة (الشمس الإلهة) لقد كانت الأسطورة إحدى وسائلهم المعرفية في إدراك الظواهر الحياتية والطبيعية "فقد كان تقديس الشمس، كإلهة أنثى، أو بوصفها رمزا أعلى للأنوثة والخصوبة موحيا للقدماء بالربط بينها وبين ممثلات أرضية، اعتقدوا أنها بدائل مقدسة للشمس - الأنثى - الأم، فوحدت العقلية القديمة بين الشمس، والمرأة، والمهابة، والفرس والغزالة، والدرّة والبيضة، والنخلة"⁽⁵³⁾.

مزج الشعراء الأغربة في شعرهم الصورة الواقعية للون الأصفر مع تداعياته الأسطورية في قاع ثقافتهم، متخذين الخيلة مطية لذلك، كشأن عنتره الذي مزج بين قدسية الشمس والمرأة من خلال لونيها⁽⁵⁴⁾.

شمس إذا طلعت سجدت جلاله
لجمها وجلا الظلام طلوعها

يفسر إسراف الأغربة - في وصفهم المرأة بكل ما هو منير مضيء، والباحهم على إضاءة ملامحها في أشعارهم - خلط هؤلاء الشعراء بين اللونين الأبيض والأصفر الذي نشأ من تداخل إدراكهم الحسي للون مع إدراكهم المعرفي. أما لو عرضنا للصور التي أسسها الشعراء الأغربة على اللون الأصفر، فإننا سنحظى بحالة واقعية ولدتها بيئتهم وحياتهم، من ذلك أنهم نسبوا القوس إلى لونها، يقول الشنفرى⁽⁵⁵⁾:

ثلاثة أصحاب: فؤاد مشيع
وأبيض إصليت وصفراء عيطل

لا شك أن نسبة الأغربة القوس إلى اللون الأصفر، جاء من تلوين الشمس لها، فبدا ربطهم بين القوس والشمس واقعيًا، لكن ذلك لم يحل دون ارتباط هذا الاستمداد الواقعي بدلالات أسطورية مترسبة في وعيم الثقافي، لأنهم كانوا يستجيبون إلى ما يعتمل في أنفسهم من رغبة يتمثل المثل الأسطورية التي تظهر في التوحيد، بين القوس، والشمس، والمرأة، نتيجة اشتراكها بأسطورة

الشمس (الإلهة)، وهذا يلبي ثورة الشاعر في بناء قوة سحرية إضافية للقوس الحاملة لصفات إلهية يوحي بها اللون الأصفر المنتسب إلى الشمس. لا شك أن صفات القوس هذه ستنتقل إلى حاملها، وتضفي عليه سمات أسطورية، يحتاج إليها الشاعر الغراب في داخله، ليضيء سواده الخارجي المرفوض اجتماعياً، مما يتيح له تعويض ما ينقصه من هوية اجتماعية بالانتماء إلى الفردية المتجسدة بالقوة الخارقة، لذلك قرن الشاعر الغراب السلاح والموت باللون الأصفر، كما ذهب تأبط شرا في وصف القتلى⁽⁵⁶⁾:

دنوت له حتى كأن قميصه تشرب من نضح الأخادع عصفرا

تسرب اللون الأصفر إلى شعر الأعربة من مدركاتهم الحسية المضيئة في البيئة الصحراوية، فأولعوا بالألوان البراقة حتى ازدهت قصائدهم بأنوارها، لكن ذلك لم يحل دون تنبهم إلى موجودات أخرى في البيئة، تحمل المادة الجامدة للون، فقد ذكر خفاف بن ندبة اللون الأصفر في وصف حصانه الذي لون أرجله النبات الأصفر (العروق)⁽⁵⁷⁾:

قد خضب الكعب من نسف العروق به من الرخامى بجني حزم أورال

واستخدم عنتره اللون الأصفر في حديثه عن شرب الخمرة⁽⁵⁸⁾:

بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر في الشمال مقدم

تكشف لنا هذه الصور - التي قامت على اللون الأصفر عند الأعربة - عن مدى إسهام هذا اللون في تشكيل واقعية الرؤية الجمالية عندهم، فقد نقلوا من خلاله مشاهداتهم في الطبيعة، ورؤاهم للحياة، رابطين عالم المحسوس بثقافة أسطورية، كانت وسيلتهم في تفسير الطبيعة والحياة، ولأنها شكلت أصالة شخصياتهم بقيت رواسبها في أفقهم المعرفي الثقافي، تخلق بهم نحو مخيلتها الأولى دون أن تنفك عن الواقع، إذ قام الواقع عند هؤلاء الشعراء - في جانب من جوانبه - على بنية أسطورية، فسروا بها وجودهم، فشكلت قوام ثقافتهم الحسية،

ورؤيتهم الغيبية، وحملت سمات عصرهم، وفكرهم ورؤاهم وتساؤلاتهم.

5 - اللون الأخضر:

عد علماء الألوان الأخضر في المرتبة الأخيرة عند الشعوب، كما هو آخر لفظ في سلسلة الألوان عند النمرى الذي عد الزرقة درجة من درجات الخضرة⁽⁵⁹⁾.

يأخذ اللون الأخضر بعده الواقعي - في شعر الأغرابة على قلة استخدامه - من كونه لون الرياض، وانخائل والأشجار، أما سبب قلة استخدامه فيعود إلى أن الشعراء الأغرابة كانوا منشغلين بهمومهم الذاتية والموضوعية، ووصف واقعهم الذي نأى بهم عن الوصف المجرد للطبيعة الخضراء الذي يحتاج إلى عوامل الراحة النفسية والجسدية، والمتعة الناشئة عن رخاء لم يعرفه هؤلاء الشعراء. يرد البعض عدم اهتمام العرب القدماء باللون الأخضر "إلى طبيعة البيئة الصحراوية التي عاشوا في كنفها، لأنهم تنبهوا للأصفر قبل الأخضر والأزرق"⁽⁶⁰⁾، لكن الطبيعة المحيطة بحياة الجاهليين ليست السبب الرئيس في غض الطرف عن هذا اللون، فهناك عامل نفسي رئيس عند هم، دفعهم إلى الابتعاد عنه، يكمن في "خواص هذا اللون المسكنة المهذئة للجهاز العصبي، إذ هو لون الربيع، والتجدد، والأمل، ويرتبط - خصوصا النافر منه - بالنماء فيرمز إلى الحياة والوفرة والخيرة"⁽⁶¹⁾، وتلك حالات تنعدم في حياة الجاهليين عامة والأغرابة خاصة، إذ قامت حياتهم على القلق وعدم الاستقرار، فلم يجدوا في رغباتهم صدى لهذا اللون، ويدلنا على ذلك أن القرآن الكريم جاء إلى العرب في نفس المكان والزمان اللذين أهملوا فيهما اللون الأخضر، فقد جاء هذا اللون من حيث وروده في آيات القرآن الكريم بعد الأبيض إذ ذكر في ثمانية مواضع مختلفة⁽⁶²⁾، كلها توحى بالجمال والنماء والنعيم والطمأنينة والاستقرار في الدنيا والآخرة، فهو يبسط الأرض بالجمال والنعمة بعد الغيث، يقول تعالى: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير)، كما أنه لون ثياب أهل الجنة⁽⁶³⁾، ولون أسرهم في الآخرة، كما في قوله: (أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم

الأنهار يجلون فيها من أساور من ذهبٍ ويلبسون ثيابا خضرا من سندس
وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا⁽⁶⁴⁾، وقوله:
(متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان)⁽⁶⁵⁾.

"فقد خص القرآن الكريم اللون الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر لأن
البياض يبدد النظر ويؤلم والسواد يذم والخضرة بين البياض والسواد وذلك يجمع
الشعاع"⁽⁶⁶⁾ وهكذا نجد أن الأغرابة استخدموا الألوان التي تكشف عن
خواصهم الذاتية وتنسجم مع مشاعرهم المضطربة القلقة التي لا تعرف الهدوء أو
السلام، لذلك عرضوا اللون الأخضر باقتضاب، من ذلك ذكر خفاف بن ندبة
اللون الأخضر في حديثه عن الماء المكلل بالطحلب⁽⁶⁷⁾:

خضرا كسين دوين الشمس عرمضه

أو طحلبا بأعلي اللصب أوшал

وتحدث تأبط شرا عن غصن البان الأخضر في بيان حالتي حياته مدلا
باللون الأخضر على الراحة⁽⁶⁸⁾:

فقلت لها: يومان، يوم إقامةٍ

أهز به غصنا من البان أخضرا

ويوم أهز السيف في جيد

أغيد له نسوة لم تلق مثلي أنكرا

أسهم انشغال الشعراء الأغرابة بالتعبير عن حالات الغزو والبحث عن بديل
لحياة التصعلك في استلابهم للألوان التي تحمل قضاياهم، فقل استخدامهم بعض
الألوان وكثر لأخرى، استجابة لمتطلبات حياتهم وحاجاتهم النفسية، كما رأينا في
تعاملهم مع اللون الأخضر الذي كان في منأى عن اهتماماتهم، وما ورد في
شعرهم من ذكره كان يحقق الأساس الواقعي للقيم الجمالية التي شكلها اللون في
أشعارهم.

6 - اللون الأزرق:

يرى العلماء أن اللون الأزرق، يمثل آخر الألوان في معظم القوائم العالمية
لترتيب إحساس البشر بالألوان، وعلى الرغم من أن الأزرق يمثل لون السماء

والبحر باتساعهما، إلا أن العربية لا تقدم تفصيلاً لهذا اللون أو درجاته، وربما يعود ذلك لعدم دلالة التسمية على اللون في العربية القديمة إذ يسمي صاحب اللسان الزرقة "البياض أينما كان، أو الزرقة خضرة في سواد العين"، وكذلك النمري يعدها درجة من درجات الخضرة، وهذا يعني أن العرب القدماء لم يستخدموا اللون الأزرق للدلالة على ما نعرفه الآن، فهو عندهم للتعبير عن القسوة والخوف والرعب والخبث، إذ قالوا سم أزرق وناب أزرق، كما وصفوا الأسنان أعين العدو، وقد ورد اللون الأزرق في القرآن الكريم في موضع واحد في قوله تعالى: "يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً"⁽⁶⁹⁾. كما سمي الرسول (ص) السماء الخضرة كناية عن الخير والجمال "ما تقل الغبراء ولا تظل الخضراء على ذي لهجة أصدق وأوفى من أبي ذر"⁽⁷⁰⁾. نستدل من ذلك أن العرب القدماء والأغربة قد استخدموا اللون الأزرق، للدلالة على القسوة، والعنف، والأسنة المرعبة في وغى المعارك، يقول عنتره⁽⁷¹⁾:

عوالي زرقا من رماح ردينةٍ هرير الكلاب يتقين الأفاعيا

أراد عنتره - في قوله هذا - التعبير عن الرعب الذي تبعثه الرماح الزرق في نفس العدو، فأظهر قوله: "يتقين الأفاعيا" مثلاً، شاع في التعبير عن الرهبة والخوف، إذ يهر الأعداء لشدة خوفهم كما تهر الكلاب خوفاً من الأفاعي. لذلك تستدعي الزرقة عبر وصف الرماح (أسطورة العين الزرقاء ذات اللعنة المدمرة للأعداء)⁽⁷²⁾، التي عينها عنتره في قوله:

بنواظر زرق ووجهٍ أسودٍ أظافر يشبهن حد المنجل

لقد انتقل المفهوم التدميري للعين في هذا السياق من التفكير السحري الأسطوري عند الجاهليين إلى الواقع الحياتي، لأنه أصبح من صميم اعتقادهم، فوظفوه فيما يلي حاجات الصورة البطولية للفرسان من رعب وإرهاب⁽⁷³⁾:

رمانى ولم يدهش بأزرق لهدم عشية حلوا بين نعفٍ ومخرم

هكذا نجد أن الشعراء الأغرابة تعاملوا مع اللون الأزرق عبر حضوره الضعيف في أشعارهم بواقعية صارمة، رابطين بين معتقداتهم بدوال هذا اللون وصورته العينية، محلقين في ضفاف مخيلة لا تفصم صلاتها بالواقع المألوف في حياتهم.

جسد الأغرابة عبر الألوان مظهرا من مظاهر واقعية الرؤية الجمالية في عصرهم، إذ استثمروا حسيتها في تصوير أفكارهم وحالاتهم، فكشفوا عن وعيهم بجمال الألوان، فنقلوا عبر هذا الوعي أحاسيسهم ورؤاهم في إطار الواقع وبناء الثقافة التي أصبحت عندهم جزءا من مكونات الواقع، مما يعني أن البنى الأسطورية التي توضع في دلالات الألوان عندهم، لم تأت من خارج واقعهم، مهما جنحت إلى الخيال، إذ وجدنا من خلال الأمثلة التي درسناها عمق ارتباط اللون بحياتهم، فاللون الأبيض والأصفر ارتبطا بالشمس والقمر والظلي وكل ما وقع تحت أنظارهم من البيئة، كذلك اللون الأسود ارتبط عندهم بالليل وبحيوانات البيئة، أما اللون الأحمر فقد ارتبط بالدم.

إن استخدام الأغرابة الألوان عبر ارتباطها العميق بأحاسيسهم وذكرياتهم وأحلامهم وقضاياهم، جعلهم يسرفون في ذكر الألوان التي تحقق هذا الارتباط، ويضنون في ذكر تلك الألوان التي تتعد عن همومهم الذاتية: كالأزرق والأخضر رغم حضورهما في الواقع.

لقد اكتشف الأغرابة خصوصيات جمال الألوان، وأدركوا أبعادها النفسية، ومرجعيتها المعرفية، فاستثمروها في قصائدهم بموازاة استثمار المجتمع جمالها في تكوين نسيجه وسنن وجوده، وفق هذا النهج الواقعي بنى الأغرابة القيم الجمالية للون وأبرزوا وعيهم بجمالياته.

الهوامش:

1 - الشعراء الأغرابة هم الشعراء الذين ورثوا سواد البشرة من أمهاتهم الحبشيات، وفق هذا المعيار تبين لنا في دراستنا أن الأغرابة الذين عاشوا في الجاهلية هم: تأبط شرا والسليك بن السلكة والشنفرى وعنترة بن شداد وحاجز بن عوف.

- 2 - ابن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)، مادة: لون.
- 3 - د. أحمد محمود خليل: في النقد الجمالي، رؤية في الشعر الجاهلي، ط1، دار الفكر، دمشق - دار الفكر المعاصر، بيروت 1996، ص 193.
- 4 - د. أحمد مختار عمر: اللغة واللون، دار البحوث العلمية، الكويت 1982، ص 10.
- 5 - انظر، شكري عبد الوهاب: الإضاءة المسرحية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1985، ص 85.
- 6 - د. أحمد مختار عمر: المرجع السابق، ص 111.
- 7 - الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2002، ص 68.
- 8 - ينظر، د. إبراهيم محمد علي: اللون في الشعر العربي قبل الإسلام، قراءة ميثولوجية، جروس برس، ط1، طرابلس الشرق 2001، ص 129 - 131. أيضا، أبو عبد الله الحسين بن علي النوري: الملمع، تحقيق، وجية السطل، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1976، ص 9.
- 9 - سحيم عبد بني الحسحاس شاعر مخضرم كان عبدا نوبيا لبني الحسحاس، قتله بنو الحسحاس لتغزله بنساءهم 660م. بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية د. عبد الحلیم النجار، دار المعارف، ط5، القاهرة، (د.ت)، ج1، ص 171.
- 10 - ديوان سحيم عبد بني الحسحاس: تحقيق عبد العزيز ميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، ط1، القاهرة 1950، ص 18.
- 11 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، ط3، بيروت 1970، ج6، ص 292 - 293.
- 12 - عنتر بن شداد: شاعر جاهلي، جاءه السواد من أمه، توفي نحو 600م. الأغاني، ج8، ص 244.
- 13 - ديوان عنتر: تحقيق بدر الدين حاضري ومحمد حمادي، دار الشرق العربي، ط1، بيروت - حلب 1992، ص 85.
- 14 - هو خفاف بن ندبة بن عمير بن الحارث بن الشريد بن رباح السلمي، مخضرم، جاءه السواد من أمه، توفي نحو 640م. ينظر أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، المكتبة التجارية، القاهرة 1939، ص 502.
- 15 - شعر خفاف بن ندبة السلمي: حققه نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد 1967، ص 29.
- 16 - شرح ديوان خفاف بن ندبة السلمي: جمع وشرح وتحقيق د. محمد نبيل طريفي، دار الفكر العربي، ط1، بيروت 2002، ص 84.

- 17 - الشنفرى: شاعر جاهلي، توفي نحو 525م، اختلف المؤرخون في نسبه، يرجح أن يكون اسمه عمرو بن مالك بن الأدرم الأزدي، أما الشنفرى فلقبه، جاءه السواد من أمه وفي ذلك اختلاف. ينظر، الأغاني، ج21، ص 185.
- 18 - المصدر نفسه، ص 81.
- 19 - ديوان سحيم، ص 55.
- 20 - د. أحمد مختار عمر: المرجع السابق، ص 107 و 186 و 195.
- 21 - ينظر، أبو عبد الله الحسين بن علي النمرى: المصدر السابق، ص 1.
- 22 - أبو منصور الثعالبي: المصدر السابق، ص 71 - 73.
- 23 - د. إبراهيم محمد علي: المرجع السابق، ص 167.
- 24 - هو السليك بن عمر وقيل ابن عمير بن يثربي، شاعر جاهلي صعلوك جاءه السواد من أمه، توفي نحو 605م. ينظر الأغاني: ج20، ص 389.
- 25 - ديوان الشنفرى ويليهِ السليك بن السلكة وعمرو بن البراق، إعداد وتقديم طلال حرب، الدار العالمية، ط1، 1993، ص 97.
- 26 - المصدر نفسه، ص 87.
- 27 - ديوان عنتره، ص 113.
- 28 - د. إبراهيم محمد علي: المرجع السابق، ص 178.
- 29 - ديوان عنتره، ص 65.
- 30 - شعر الشنفرى، ص 101.
- 31 - تأبط شرا شاعر جاهلي، جاءه السواد من أمه، توفي نحو 540م. ينظر، الأصفهاني: الأغاني، ج21، ص 138.
- 32 - ديوان تأبط شرا: إعداد طلال حرب، دار صادر، ط1، بيروت 1996، ص 15.
- 33 - شعر الشنفرى: المصدر السابق، ص 75.
- 34 - حاجز بن عوف الأزدي، شاعر جاهلي، لص من أغربة العرب، جاءه السواد من أمه. ينظر، الأغاني، ج13، ص 233.
- 35 - محمد بن مبارك بن ميمون: منتهى الطلب من أشعار العرب، مخطوطة المكتبة السليمانية، الورقتان 129 - 130.
- 36 - شعر عبدة بن الطيب: تحقيق د. يحيى الجبوري، دار التربية، بغداد 1971، ص 50.
- 37 - شعر الشنفرى، ص 100.
- 38 - د. إبراهيم محمد علي: المرجع السابق، ص 57 - 58.

- 39 - د. أحمد مختار عمر: المرجع السابق، ص 154.
- 40 - أبو منصور الثعالبي: المصدر السابق، ص 172 - 174.
- 41 - د. إبراهيم محمد علي: المرجع السابق، ص 57.
- 42 - ديوان عنتر، ص 22.
- 43 - شعر الشنفرى، ص 102.
- 44 - المصدر نفسه، ص 103.
- 45 - المصدر نفسه، ص 79.
- 46 - ول ديورانت: مباحث الفلسفة، ترجمة أحمد فؤاد الأحواني، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1957، ج 16، ص 297.
- 47 - ديوان عنتر، ص 47.
- 48 - المصدر نفسه، ص 160.
- 49 - المصدر نفسه، ص 175.
- 50 - شكري عبد الوهاب: الإضاءة المسرحية، ص 76.
- 51 - البقرة، الآية 69.
- 52 - أبو منصور الثعالبي: المصدر السابق، ص 72 - 74.
- 53 - د. إبراهيم محمد علي: المرجع السابق، ص 103 - 104.
- 54 - ديوان عنتر، ص 212.
- 55 - شعر الشنفرى، ص 110.
- 56 - ديوان تأبط شرا، ص 28.
- 57 - شعر خفاف بن ندبة، ص 90.
- 58 - ديوان عنتر، ص 21.
- 59 - د. إبراهيم محمد علي: المرجع السابق، ص 211.
- 60 - نفسه.
- 61 - نفسه.
- 62 - سورة يوسف، الآيات 43 و46. وسورة الأنعام، الآية 99. وسورة يس، الآية 80. وسورة الرحمن، الآية 76. وسورة الإنسان، الآية 21. وسورة الكهف، الآية 31. وسورة الحج، الآية 63.
- 63 - الحج، الآية 63.
- 64 - الكهف، الآية 31.

- 65 - الرحمن، الآية 76.
- 66 - محمد بن فرج القرطبي: تفسير القرطبي، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب، ط2، القاهرة 1954، ج10، ص 397.
- 67 - شعر خفاف بن ندبة، ص 90.
- 68 - ديوان تأبط شرا، ص 26.
- 69 - طه، الآية 102.
- 70 - ابن حبان البستي: صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت 1993، ج16، ص 76.
- 71 - ديوان عنتره، ص 107.
- 72 - د. إبراهيم محمد علي: المرجع السابق، ص 258.
- 73 - ديوان عنتره، ص 92.

الإحالة إلى المقال:

* خالد زغریت: الأساس الواقعي لجماليات اللون في شعر الأغرابة الجاهليين، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد الثالث 2005، ص 93 - 112.

<http://Annales.univ-mosta.dz>